العرب
الأربعاء 2019/12/18
السنة 42 العدد 11562

محمد خان الذي لم ينس أبدا أنه مصري

زمن الأفلام القصيرة والبحث عن «البطيخة» في نادي سينما القاهرة

«الرجل الكبير الصغير» أحد الأفلام التي أثارت الاهتمام في السبعينات

كان نادي سينما القاهرة يعرض عادة، فيلما قصيرا يسبق عرض الفيلم الطويل، في تقليد جميل كنا نتطلع أن يصبح من تقاليد العروض السينمائية العامة في مصر، وهو ما لم يحدث بكل أسف حتى اليوم، خاصة بعد أن تفرّق شمل نقاد السينما الذين كانت تجمعهم أهداف واحدة مشتركة في الستينات والسبعينات، ولم تعد لهم قوة ضغط.

أمير العمري
كاتب وناقد سينمائي مصري

أنشئ المركز القومي للأفلام التسجيلية في مصر عام 1967، وترأسه في البداية الصحافي حسن فؤاد ثم سعد نديم ثم صلاح التهامي، على أن تكون مهمته إنتاج الأفلام التسجيلية والقصيرة ثم تغير اسمه فأصبح "المركز القومي للسينما" عام 1981 وترأسه أحمد الحضري، وتوسّع في دوره كثيرا، ولكن دون توفير ميزانية ملائمة له، فأصبح مسؤولا عن مشاركة مصر في المهرجانات السينمائية الدولية، وإدارة الأرشيف السينمائي الذي لم يكتمل أبدا، وإقامة مهرجان الإسماعيلية للأفلام التسجيلية والقصيرة.

ولعل السنوات الأولى التي أعقبت إنشاء المركز كانت الأكثر نشاطا، بسبب تعيين مجموعة متميزة من خريجي معهد السينما للعمل في تصوير وإخراج الأفلام لحساب المركز. من هؤلاء مخرجون مثل: داود عبدالسيد وفؤاد التهامي وحسام علي وهاشم النحاس وعبدالمنعم عثمان وشريف صبري وفؤاد فيض الله وسيد عثمان ومحمد عماد الدين وعاطف الطيب وعنان نديم ومحمود سامي عطا الله وشعبان إبراهيم ونبيهة لطفي، والمصوّر سعيد شيمي، والمونتير أحمد متولي، وآخرين.

وقد عرض النادي الكثير من الأفلام القصيرة التي صنعها هؤلاء، في النصف الأول فقط من عام 1973، هذا العام الذي أعتبره -لأسباب كثيرة- من أكثر أعوام النادي تألقا وكثافة وتميزا في النشاط، وفيه شاهدنا عددا من أفضل الأفلام التي ظهرت في كل العصور.

في العرض الأول للنادي، الأربعاء 3 يناير 1973، شاهدنا الفيلم التسجيلي القصير "تي" (7 دقائق) إخراج أحمد فؤاد درويش (وكان في السادسة والعشرين من عمره) وتصوير علي الغزولي (كان في الثامنة والعشرين من عمره).

وعرض الفيلم قبل الفيلم الروائي الطويل "الرجل الكبير الصغير" (Little Big Man) للمخرج الشهير آرثر بن (مخرج بوني وكلايد). وهو من إنتاج 1970، وبطولة داستين هوفمان وفاي دوناواي وريتشارد موليغان. وكان يوسف شريف رزق الله هو الذي كتب تحليلا له، وختم مقاله بقوله "إن آرثر بن بفيلمه: الرجل الكبير الصغير، يشير إلى أن المدنية التي ولدت من حرب الإبادة والتي لا تعيش إلّا على حروب إبادة أخرى، محكوم عليها بأن تقضي على نفسها بنفسها".

الفيلم التسجيلي الأول

نعود إلى اهتمام النادي بالأفلام القصيرة، لكي نرى أنه في الأسبوع التالي مباشرة عُرض فيلم "سوق ميلانو" وهو تسجيلي إيطالي (20 دق)، والغريب أن النشرة لا تذكر أي معلومات عنه ولا حتى اسم مخرجه. أما فيلم "كهربة الريف" فكان من الأفلام الأولى للمخرج أحمد راشد، ومن تصوير سعيد شيمي الذي يعتبر القاسم المشترك لأفلام ذلك الجيل الجديد من خريجي معهد السينما الذين كانوا قد بدأوا يضعون أقدامهم على سكة الإخراج. لكنه ارتبط أيضا بصداقة وطيدة مع محمد خان قبل أن يصبح خان مخرجا، أي منذ سنوات الطفولة، وظل يتبادل معه الرسائل بعد أن ذهب خان إلى لندن حيث أقام لعدة سنوات. وقد نشر سعيد شيمي مجموعة الرسائل المتبادلة بينهما في ثلاثة كتب.

وفي عام 1973 شاهدنا في نادي السينما فيلم "البطيخة" الذي أخرجه محمد خان في العام السابق وهو أول أفلامه على الإطلاق كمخرج، وصوره سعيد شيمي ويقع في 9 دقائق.

وفي العدد 22 من نشرة النادي وفي سياق رصده وتعليقه على الأفلام التي شاركت في مهرجان الأفلام المصرية القصيرة والتسجيلية، كتب سامي السلاموني باقتضاب عن "البطيخة"، فقال "لقطة شديدة الذكاء والصدق من واقعنا: الموظف المطحون طوال يومه في العمل ونداءات زوجته وأولاده تطارده مطالبة بكل الأشياء بما فيها شراء بطيخة للأولاد ومغامرة شراء البطيخة نفسها وركوب الأوتوبيس والوصول بها أخيرا إلى البيت وكأنها كنز، ولحظة الطعام التي تصبح متعة حياتنا الوحيدة، وتنتهي في المرة الأخيرة البطيخة بالأفواه ويبقى الكادر ثابتا كأنما يتساءل: وماذا بعد؟ رغم المستوى المتواضع للفيلم كعمل سينمائي إلّا أن قيمته الأولى في صدقه الشديد واقتحامه الواقع المصري وتقديم شريحة سريعة شديدة البساطة من هذا الواقع الذي يحسّه جيدا محمد خان المخرج الذي عاش في مصر سنوات عديدة بحيث لم يفقد قدرته على الإحساس بالروح المصرية وفهمها بحب شديد، رغم سنوات عديدة أخرى عاشها في لندن، ولكنه بقي مصريا أكثر من كثيرين منا يعيشون معنا كل يوم، ولكنهم ينسون في أفلامهم كيف نعيش".

الطريف أن محمد خان نفسه كان قد أرسل رسالة من لندن إلى نشرة النادي نشرت في العدد 7 (بتاريخ 21 فبراير 1973). أوجز هنا ما ذكره فيها لدلالتها بالنسبة لأسلوب محمد خان السينمائي بعد أن أصبح مخرجا محترفا للأفلام الطويلة في ما بعد.

بدأ خان بالإشارة إلى مقال الناقد سمير فريد في جريدة "الجمهورية" الذي ذكر فيه أن "البطيخة" هو أول فيلم مصري يخرج بالكاميرا إلى الشارع، وأبدى خان استغرابه الشديد من هذه المعلومة، وقال إن الفيلم المصري الطويل يستغل الشوارع كمجرد إكسسوارات فقط لمواضيعه أو وسيلة للانتقال من فترة لأخرى، لكن يمكن أن تمد الشوارع مواضيع الأفلام بالحياة.. ونفى أن يكون استخدام الشوارع قد جعل فيلمه تسجيلي الطابع، مؤكدا أنه من نوع الدراما التسجيلية فقط لأنه استخدم التعليق الدرامي على فكرة واقعية المصدر في المشهد الأول. وأوضح خان أن المشاهد الخارجية كلها صوّرت في 5 ساعات من يوم واحد، ورغم ذلك تمكن سعيد شيمي "أن يسرق بكاميرته جو الشوارع، واضطر المونتير أحمد متولي إلى حذف بعض اللقطات بسبب تدخل المارة الراغبين بإصرار في الظهور أمام الكاميرا"!

طبعا مسألة إصرار الناس على الظهور في الصورة وتعطيل التصوير كانت من ضمن الأشياء التي أثارت ضيق محمد خان. لكنه كان يتغلب عليها ويحصل على ما يريد من التصوير في المواقع الخارجية. ويشرح خان في رسالته كيف اتفق مع سعيد شيمي على كسر الطابع التسجيلي بجعل حركة الكاميرا أسرع من حركة الممثل على أن تسير "في حركة موازية مائلة، حيث تنتهي اللقطة بمواجهة الموظف للكاميرا وهي تتراجع للخلف".

عشرة أفلام قصيرة

في 2012 كنت أعمل مديرا للدورة الـ15 لمهرجان الإسماعيلية للأفلام التسجيلية والقصيرة في مصر. وجاءت فكرة تخصيص أمسية لعرض عشرة أفلام قصيرة قديمة أخرجها مخرجون أصبحوا اليوم من مشاهير المخرجين.

وقد أخذنا نختار الأفلام ونبحث في ما خفي من أمرها، على أن يتولى المركز القومي للسينما مهمة ترميمها وطبع نسخ رقمية منها لعرضها. وكانت كلها ضمن قائمة الأفلام التي يمتلكها المركز.

كانت الأفلام العشرة هي: "النيل أرزاق" لهاشم النحاس، "وصية رجل حكيم في شؤون القرية والتعليم" لداود عبدالسيد، "حياة جديدة" لأشرف فهمي، "صلاة من وحي مصر العتيقة" لنبيهة لطفي، "مقايضة" لعاطف الطيب، "نمرة 6" لصلاح أبوسيف، "عم عباس المخترع" لعلي بدرخان، "العمار" لعبدالمنعم عثمان، "طبيب في الأرياف" لخيري بشارة، وأخيرا "البطيخة" لمحمد خان.

> عام 1973، كان من أكثر أعوام النادي تألقا وتميزا في النشاط، ففيه عرضت أفضل الأفلام التي ظهرت منذ نشأة السينما

جاء محمد خان وأحضر معه نسخة من "البطيخة" -الفيلم بالطبع لا الفاكهة- وعلى الفور كلفت صديقي محمود عبدالسميع مدير التصوير الموهوب وراهب السينما الذي كان يعمل معي تطوعا، بتولي مهمة تنقية النسخة، لكنه عاد في اليوم التالي حزينا وقال إن النسخة هي شريط الصوت فقط من دون شريط الصورة، أي أن "البطيخة" ليس عندنا. وشعرت بصدمة. وكان المطلوب العثور في أسرع وقت على شريط الصورة الذي كان منفصلا بتقنية تلك الأيام.

واقتضى الأمر التفكير في بعض الاتصالات التي قام بها سعيد شيمي ومحمد خان، ثم رحلة إلى الإسكندرية، حيث عثر خان بمعجزة على شريط الصورة في مخزن السقف المهجور (الصندرة) في شقة المونتير أحمد متولي، فتم ضم النسختين معا واستخراج نسخة رقمية (ديجيتال) من الفيلم الذي عرض للمرة الأولى منذ أن عرض في السبعينات، في مهرجان الإسماعيلية تلك السنة!

وقد أهدينا نسخة رقمية من الفيلم إلى مخرجه محمد خان كما طلب، وأنقذنا الفيلم من الضياع، وبهذا ضربنا المثل في أن مهرجانات السينما لا يجب أن تكتفي بـ"استهلاك الأفلام" بل بالبحث عن المفقود منها وإنقاذها وترميمها واستعادتها أيضا، طالما أننا لا نمتلك حتى الآن "السينماتيك" الحقيقية!

محمد خان مخرج غاص عميقا عبر فيلمه التسجيلي القصير «البطيخة» في تفاصيل المواطن المصري

«لبغداد+NH4»: عرض عراقي يدعو للتفكير في عالم ما بعد الموت

تابع عشاق الفن الرابع ضمن فعاليات الدورة الحادية والعشرين لأيام قرطاج المسرحية، الأخيرة، عرضا لمسرحية عراقية بعنوان "لبغداد+NH4" للمخرج علي دعيم، وهو العرض الأول أمام الجمهور.

حنان مبروك
صحافية تونسية

يرى المسرحي الشهير ويليام شكسبير أن "الدنيا مسرح كبير وكل الرجال والنساء ما هم إلاّ ممثلون على هذا المسرح"، ممّا يعني ربّما أن هذه الحياة تحمل في أيامها وسنواتها أعمالا مسرحية خالدة، بعضها كوميدي والآخر تراجيدي، بعضها واقعي والآخر خيالي، بعضها فردي والآخر يجسده جمع من الممثلين، وكل هذه المسرحيات ستعرض يوما ما أمام جمهور كبير.

من زاوية نظر قريبة من هذه الفكرة ينظر المخرج العراقي المسرحي علي دعيم إلى الأمور الحياتية للإنسان بنظرة المحلل، فيدرس في كل عمل من أعماله المسرحية مسألة قد يتغافل عنها الإنسان، حتى أنّه اختار في آخر أعماله "لبغداد+NH4" أن يبحث في مسألة الموت والحساب.

ولم يكتف دعيم بمهمة الإخراج فقط، بل أشرف أيضا على دراماتورجيا ونصّ العمل الذي قام بأدوار البطولة فيه كلّ من مرتضى علي وعلاء قحطان وفكرت حسين ومؤمل حيدر ومصطفى نبيل وسهيل نجم.

من تعرّض شخصيتين في العالم الواقعي إلى انفجار حدث فجأة وما زال يتكرّر في مشاهد مُشابهة في العراق وبلدان أخرى يأخذنا العمل المسرحي إلى المأزق الأكبر، إذ تحاول إحدى الشخصيتين مساعدة الأخرى للنجاة، لكنّ أنانية الإنسان تدفعه إلى التفكير في نفسه والتخلي عن الآخر، فيتركه لمصيره، لا صاحبه يشفع له ولا أهله وبنوه.

فالموت، تلك المسألة الجوهرية في حياة الإنسان، وخاصة الموحّدين ممّن تقرّ أديانهم بالآخرة والعقاب الإلهي، تحمل في داخلها كمّا هائلا من الأسئلة الوجودية والمصيرية التي يفكّر فيها عقل الكبير والصغير، الرجل والمرأة على حدّ السواء، فمن منا لم يتخيّل يوما كيف ستكون حياته بعد الموت؟ هل فعلا سيحمل أوراقا لا تحصى ولا تعدّ قد دوّنت فيها الملائكة كل أفعاله وحركاته وسكناته؟ وكيف سيكون شكل هذه المخلوقات وما تحمله؟ هل سيجد نفسه مذنبا معاقبا أشد العقاب أم محسنا؟ وكيف سيستقبله الله وما هي حجته في ما جنت يداه؟

وينقلنا المخرج إلى عالم البرزخ أو عالم القبر وعذابه وإلى يوم الحساب وهنا نشهد العالمين، عالم الحياة وعالم الموت، العالم الواقعي والعالم الميتافيزيقي.

وانطلاقا من إيمانه بأن اسم العمل يعتبر أول العناصر التي تبعث في الإنسان الحيرة والسؤال، فقد اختار علي دعيم لعمله المسرحي عنوان "لبغداد +NH4" ويبدو أنّ فيه رمزية عميقة وغير محدودة تترك للمُشاهد المجال فسيحا في أن يبلور تحليلا ذاتيا للعنوان ويربطه بموضوع العمل.

وربما يختزل هذا العنوان انطلاقا من خصائص الأمونيوم (+NH4) فكرة أن الإنسان يتكوّن من مجموعة تراكمات فكرية ومعرفية تتجمّع وتختفي حسب نموّه وتطوّره، كما تحيلنا إلى فكرة أن الإنسان ما هو إلاّ مجموعة من الأفعال والأقوال، وأيضا فكرة الموت والبعث، فالإله سيجمع الناس ليوم معلوم كذرات الأمونيوم المتناثرة ليتجسّد في هيئته الأصلية ويلقى حسابه. وكما يعمل الأمونيوم كمنبّه للتربة القلوية، ها هو العمل المسرحي العراقي يأتي كمنبّه للمُشاهد بنهاية إنسانية حتمية لطالما نسيها أو تغافل عنها الجميع.

يفتتح المخرج العراقي علي دعيم مسرحيته بمشهد العزاء الذي حمل للمتلقي التونسي في الدورة الحادية والعشرين لأيام قرطاج المسرحية، المنتهية الأحد، فكرة عن هذه المواقف الحياتية المؤلمة وكيف يعيشها العراقي.

ويقف الممثل بلباسه الأسود وذلك الشال الملفوف حول رقبته في زاوية المسرح اليمنى، وربط الشال بهذه الطريقة يوحي حسب التقاليد العراقية أن الميّت أحد إخوته، ليشرع في تقبل العزاء في لحظات مملة ومتكررة أشبه بالواقع المرير على الإنسان.

وكلّما غاب المعزّون، علا صوت القرآن مذكّرا بـ"الحاقّة" ليجسّد الممثل في حركات كوريغرافية بعضا من اللطيمات المنسجمة مع طريقة الترتيل بما فيها من إطالة واختصار.

> المخرج العراقي علي دعيم يبحث في عمله المسرحي الراقص مسألة الموت وما بعده وفق تصور جمالي مربك

ولأن غاب النصّ المسرحي كليا في هذا العمل، فقد حضرت الإشارات الرمزية من نصّ قرآني و"قوالة" لنسوة يبكين الميّت فيسمعها الجمهور غير واضحة، ليحضر أيضا جسد الراقصين بما تحمله حركاتهم من دلالة، ويحضر الإله، أيضا، الذي يلعب دوره الممثل العراقي علاء قحطان، وهو يحاسب كل امرئ بما يحمله كتابه.

ويبدو المخرج العراقي علي دعيم في هذا العمل متمسّكا بفكرة لطالما آمن بها وهي أنّ لغة الجسد أكثر تعبيرا وصدقا من كل اللغات، إذ يرى في حركة الممثل قدرة رهيبة ولا محدودة على رسم الأفكار بطريقة أبلغ من الكلام.

وقد أتقن الممثل سهيل نجم الذي لعب دور المُعاقب أغلب مشاهده، الأمر الذي جعل الجمهور يصدّق شدّة العذاب التي يعانيها حتى أنهم صفقوا له مرات عديدة خلال العرض كما تجهّمت وجوههم راغبة في إنقاذه من نهايته المأساوية في أكثر من مرة.

وكي يكون العمل المسرحي سهل التقبّل لدى المتلقي، خاصة في غياب النصّ، عوّل المخرج على السينوغرافيا وما يمكن أن تضفي التقنيات الصوتية والبصرية من حركية تخدم المسار العام للمسرحية، وقد اقتصر ديكور العرض على الحبال والورق وبعض اللفائف البيضاء التي تشير إلى الكفن، وفي خلفية المسرح يقبع الإله وهو يستقبل كل ميت جديد فيفصل عنه كفنه ويعاقبه مستعرضا أمامه ما يحمله كتاب أفعاله.

كل إلى مصيره يسير